حَرَكَـة الوَرَّاقِـيْن
فـي
الحَضَارة العَربيَّـة الإسْلاميَّة

الدّكتور ربْحي مصْطفى عليَّان
كليَّة التربية – جامعة البحرين

المقدمـة:

يشكل تاريخ الكتب والمكتبات في الإسلام جزءاً مهماً من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. والمعروف أن العرب لم يعرفوا الكتب قبل مجيء الإسلام. ولهذا فقد كان القرآن الكريم (كتاب الله) فتحاً جديداً، ليس في تاريخ العقيدة الإسلامية فحسب، بل في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. ولقد كرّم القرآن الكريم العلم والعلماء والكتاب والقلم. وجاء في محكم آياته "هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ"(١)، وجاء أيضاً "وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ"(٢). كما أقسم سبحانه بالقلم في قوله: "وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"(٣). كذلك اهتم الإسلام بالكتابة، وقد نصت على ذلك الآية القرآنية "يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالْعَدْلِ"(٤).

---

(١) القرآن الكريم. سورة الزمر، الآية رقم ٩.
(٢) القرآن الكريم. سورة الطور، الآية رقم ٢.
(٣) القرآن الكريم. سورة القلم، الآية رقم ١.
(٤) القرآن الكريم. سورة البقرة، الآية رقم ٢٨٢.

وتعتبر المكتبات وخزائن الكتب الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي تفخر بها الحضارة العربية الإسلامية، حيث إنها قامت بدور كبير في نشر العلوم والمعارف بين المسلمين. ولقد تعدى تأثيرها المسلمين أنفسهم، وانتقلت آثارها المختلفة إلى أوروبا في عصورها المظلمة. أما الحركة التي قامت على أكتافها المكتبات وخزائن الكتب الإسلامية باعتبارها مظهراً من مظاهر الثقافة العربية الإسلامية فهي حركة الوراقين. ولئن أغفل المؤرخون أخبار هذه الحركة ولم يهتموا بها، فإن فضل الوراقين لا يمكن إنكاره بأي حال، ذلك أن ملايين المخطوطات العربية التي ملأت مكتبات بغداد والبصرة ودمشق وقرطبة وبخارى والقاهرة وإستنبول وغيرها من المدن الإسلامية قبل اختراع الطباعة تشهد لهؤلاء الوراقين.

لقد كانت الرواية الشفوية أول محاولة لنقل المعرفة والعلوم عند جميع الشعوب والحضارات، ولكن الرواية في الحضارة العربية الإسلامية بشكل عام ورواية الحديث بشكل خاص اقترنت منذ البداية بالحرص الشديد والدقة الكاملة والأمانة والصدق، لأن الدين الإسلامي يدعو إلى ذلك. ولأن كثيراً من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كانت شاهداً من شواهد التشريع وآية من آيات الفتوى، فقد التزم المسلمون الأمانة والحرص في روايتهم كلام الله ورسوله، وفي روايتهم أشعار الجاهليين وأيامهم ووقائعهم. ولقد كانت الكتابة شيئاً جديداً. فالعرب كانوا أميين ولم تنتشر الكتابة بينهم إلّا بدعوة الإسلام. "ففي أعقاب غزوة بدر كان من طرق مفاداة الأسرى المشركين أن يعلم الأسير عشرة من المسلمين الكتابة. فكان زيد بن ثابت – كاتب رسول الله– أحد هؤلاء الذين علّمهم الأسرى"(٥).

ومع ظهور حلقات الدرس ومجالس الإملاء في الحضارة العربية الإسلامية، بدأ التأليف يتجاوز حدوده التقليدية وأصبح العلماء المسلمون لا يلتزمون

(٥) المقريزي. إمتاع الأسماع. الجزء الأول، ص١٠١.

بموضوعات محددة، وإنما يتناولون أكثر من مجال من مجالات المعرفة والعلوم. وقد أدى انتشار مجالس الإملاء إلى ظهور كتب كثيرة تعرف باسم "الأمالي"، أفرد لها حاجي خليفة فصلاً خاصاً بها في كتابه المعروف "كشف الظنون"[٦]. وقد ازدهرت حركة التأليف ازدهاراً واضحاً وملموساً خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، يدفعها ويمدها بأسباب الخصب والنماء انتشار صناعة الورق في بغداد ابتداءً من عصر الرشيد، وظهور طبقة جديدة تعرف بطبقة الوراقين التي تمارس صناعة الوراقة وهي كما يعرفها ابن خلدون "عملية الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية..."[٧]، ولولا دخول صناعة الورق وانتشارها في الديار الإسلامية المختلفة وظهور حركة الوراقين، لرأينا حركة التدوين والتأليف والترجمة مقيّدة الخطى، ولَمَا انتشر الكتاب العربي الإسلامي بشكل واسع.

لقد كان الوراقون جنوداً مجهولين في الحضارة العربية الإسلامية. فقد أغفل المؤرخون أخبارهم ولم يهتموا بهم، ولهذا فإن أخبارهم نادرة ومبعثرة في بطون الكتب. ولم يعرهم الاهتمام الواضح سوى اثنين كانا وراقين أيضاً وهما: ابن النديم وياقوت الحموي. فقد تعرض ابن النديم في كتابه "الفهرست"[٨] لسيرة عدد من الوراقين. أما ياقوت، فقد ترجم في "معجم الأدباء" لبعض الوراقين، وقال في مقدمة كتابه: "وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين واللغويين والنسابين، والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين..."[٩] وقد تعمّد ياقوت أن يترجم للوراقين لأنه ورّاق مثلهم، حيث بلغ من ترجم لهم من الوراقين أو ذكرهم عرضاً

---

(٦) انظر حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

(٧) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٨) انظر الفهرست لابن النديم.

(٩) ياقوت الحموي، معجم الأدباء. ج١، ص٤٨.

في سياق تراجم غيرهم خمسين وراقاً من مجموع التراجم البالغة ألفاً ومائة واثنتين وأربعين ترجمة.

لقد شهد القرن الثاني للهجرة بداية حركة التدوين التي تمثلت في جمع الحديث النبوي الشريف ومن بعده المغازي والسير. ثم تتابع التأليف في مختلف فروع المعرفة آنذاك. ولم يلبث العرب أن أحسوا بالحاجة إلى تدوين تراثهم وتاريخهم. فظهرت الكتب المختلفة متأثرة في بداية الأمر بطريقة التأليف في الحديث. كذلك شهد هذا القرن (الثاني للهجرة) البدايات الأولى لحركة الترجمة نتيجة اتصال المسلمين بالحضارات الأخرى كالفارسية واليونانية. "ويعتبر عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي للترجمة. فقد كانت الترجمة عملاً رسمياً تتولاه الدولة وتنفق عليه بسخاء. كما أسس الرشيد أكاديمية تحوي قسماً "للترجمة والتأليف ومكتبة وهي بيت الحكمة في بغداد"[١٠].

بداية الحركة ونشأتها:

قبل الحديث عن حركة الوراقين فإن قصة التدوين وصناعة الورق في الحضارة العربية الإسلامية تستحقان وقفة قصيرة. لأنهما الأساس الذي استندت إليه الحركة. فمن المعروف أن المسلمين الأوائل كانوا يعتمدون على الذاكرة في استظهار آيات القرآن وحفظها، ولكن وجد في عهد الرسول الكريم بعض الصحابة الذين سجلوا أجزاء كثيرة متفرقة من القرآن الكريم على سعف النخيل أو رقاق الحجارة أو اللحاء العريضة أو ما شابهها من المواد. وقد توفي الرسول عليه السلام والأمر على ما ذكر، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الصحابة كان يحفظ القرآن الكريم غيباً، وعلى رأسهم شيخ القرّاء زيد بن ثابت. فلما استمر القتل في الصحابة، وبخاصة القرّاء منهم، أثناء حرب الردة في زمن أبي بكر رضي الله عنه، خاف أبو بكر على القرآن من الضياع، فاستشار الصحابة في جمع القرآن

---

(١٠) ميري فتوحي، فهرسة الكتاب العربي، ص١٣.

الكريم في طرس واحد، فوافقوه على ذلك، وشكلوا لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت. فكتبوا القرآن في الرق لطول بقائه أو لأنه موجود عندهم حينئذ(١١). ويؤيد ذلك الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"* والسيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"**.

وعندما جاء الخليفة عثمان بن عفان ورأى اختلاف الأمصار الإسلامية في قراءة القرآن الكريم، أمر باستنساخ نسخ رسمية للقرآن الكريم وتوزيعها على البلاد الإسلامية حتى لا يحدث اختلاف في القراءات، فنسخت خمسة مصاحف أرسلت إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة. وأبقى عثمان لنفسه مصحفاً عرف بالمصحف الإمام. ومنذ ذلك التاريخ حفظ النص الأصلي للقرآن الكريم مصداقاً لقوله سبحانه: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(١٢). ويمكن القول إن الذين قاموا بنسخ المصاحف الخمسة هم الوراقون الأوائل في الحضارة الإسلامية. كما يمكن القول إنّ حركة الوراقين بمفهومها الواسع قد بدأت منذ ذلك الزمن المبكر. يقول السجستاني في "كتاب المصاحف": "حدثنا عبدالله، حدثنا محمد بن إسماعيل الأخمس وعلي بن أبي الخصيب قال: حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن أبي حكيمة العبدي قال: كنت أكتب المصاحف بالكوفة، فيمر علينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيقوم فينظر فيعجبه خطنا ويقول: هكذا نوروا ما نوّر

---

(١١) القلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٤٧٥.

* الزركشي. البرهان في علوم القرآن. م١، ص٢٣٣-٢٣٤.

** السيوطي. الإتقان في علوم القرآن. ج١، ص٧٦-٧٧.

(١٢) القرآن الكريم. سورة الحجر، الآية رقم ٩.

الله"[١٣]. وقد روى المؤلف نفسه أن عبدالله بن عوف استكتب رجلاً من أهل الحيرة مصحفاً فأعطاه سبعين درهماً[١٤].

وبعد تدوين القرآن الكريم في المصاحف؛ قل اعتماد المسلمين على الذاكرة وازداد اعتمادهم على الكلمة المكتوبة. وعندما احتكوا بالأمم والشعوب الأخرى المجاورة ورأوا ما عندهم من حضارة وثقافة، بدأت عملية التمازج الحضاري، وظهر عند المسلمين من المعارف والعلوم ما جعل الاعتماد على الذاكرة أمراً مستحيلاً، فبدأت حركة التدوين والنقل والتأليف بالانتشار، لتزدهر على أثرها الحضارة العربية الإسلامية بعامة وحركة الوراقين بخاصة.

والجدير بالذكر أن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام قد كتبوا على مواد مختلفة كأكتاف الإبل واللخاف وهي "الحجارة الرقيقة البيضاء"، بالإضافة إلى الألواح الخشبية وعسب النخل. كما استخدم العرب وسائل أخرى للكتابة قبل الورق مثل الرقوق وهي تلك الجلود التي دبغت وصقلت بأسلوب معين يجعلها صالحة للكتابة. وقد جاء في القرآن الكريم: "وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ"[١٥] وهذا دليل على استخدام الرقوق في الكتابة. وتذكر المصادر أن الرقوق كانت تجلب من بلاد فارس[١٦]، وأنها بقيت من أدوات الكتابة المستعملة لدى العلماء والأدباء حتى القرن السادس للهجرة[١٧] كذلك استخدم العرب القراطيس وهي أوراق البردي وكان مصدرها الأول مصر، وكانت مظهراً من مظاهر الحياة المتحضرة

---

(١٣) السجستاني، كتاب المصاحف، ص١٣١-١٣٢.

(١٤) المصدر نفسه ص١٣٣.

(١٥) القرآن الكريم، سورة الطور، الآية ١-٣.

(١٦) ناجي معروف. الورق البغدادي، ص٤٠٧.

(١٧) محمد طه الحاجري، الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، ص٨٢.

حيث كتبت عليها المواثيق والعهود والكتب المقدسة. وقد ورد ذكر القراطيس في القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ..." [١٨]. أما المهارق فهي نوع من أنواع الورق يدل استعماله على التقدم الحضاري والترف عند الأقوام التي تستخدمه. وهذا يعود إلى أنها تصنع من الحرير المعروف بغلاء ثمنه.. وقد تطرق الجاحظ في كتابه الحيوان إلى المهارق حيث يقول: "والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان". وكانت المهارق تصنع في بلاد فارس من الحرير [١٩]. أما الصحف المستخدمة من الجلود فقد استعملها العرب في بداية عهد الإسلام. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى"[٢٠]. وفي قوله سبحانه: "رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً[٢١].

ومما ساعد على انتشار التأليف والنقل وازدهار الحركة العلمية على مقياس لم يُعهد من قبل، دخول صناعة الورق وانتشاره في الجزء الشرقي من البلاد الإسلامية، ابتداءً من عصر الرشيد والمأمون ومن أتى بعدهما، ثم اتساع نطاق استعماله غرباً حتى الأندلس. ولقد كانت صناعة الورق معروفة منذ القديم في بلاد الصين والشرق الأقصى وكان يصنع من عجينة من الحرير والكتان وغيرها من المواد. ولما فتح المسلمون سمرقند عام ٧١٢ للميلاد وجدوا فيها الكاغد[٢٢]. وعلى

---

(١٨) القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية رقم ٧.

(١٩) ناجي معروف، الورق البغدادي، ص٤٠٨.

(٢٠) القرآن الكريم، سورة الأعلى، الآية رقم ١٨-١٩.

(٢١) القرآن الكريم. سورة البينة، الآية رقم ٢.

(٢٢) الكاغد هو الورق المصنوع من العشب أو الخرق (قطع القماش البالية). محمد ماهر حمادة. المكتبات في الإسلام، ص٧٣.

الرغم من أنهم لم ينتبهوا أول الأمر لأهميته واعتبروه شيئاً عادياً، إلّا أنهم بعد فترة تعلموا صناعته ونقلوها إلى بغداد، حيث تأسس أول مصنع للورق فيها قبل نهاية القرن الثامن للميلاد (٧٩٤م). وقد تركزت صناعته في محلة كبيرة في بغداد اسمها دار القز. بعد ذلك انتشرت صناعة الورق في بقية الديار الإسلامية، فقد تأسس أول مصنع للورق في مصر عام ٨٠٠ للميلاد. كما اشتهرت الأندلس بصناعته وكان مركزه في مدينة شاطبة التي كانت تصدره إلى أوروبا. وقد تأسس أول مصنع للورق في الأندلس عام ٩٥٠ للميلاد. وكانت معامل الورق في الأندلس تنتج جميع أنواعه بما فيها الأبيض والملون[٢٣]. وقد تعلمت أوروبا صناعته عن طريق احتكاك الأوروبيين بالمسلمين في بلاد الشام وغيرها أثناء الحروب الصليبية وعن طريق الأندلس كذلك.

ويعود الفضل في إدخال الورق أو الكاغد في الدواوين ووضعه في الاستعمال إلى الخليفة الرشيد ووزيره جعفر. يقول المقريزي: "وكانت كتابة الدواوين في صدر الإسلام، أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة، فلما انقضت أيام بني أمية وقام عبدالله بن محمد أبو العباس السفاح، استوزر خالد بن برمك... فجعل الدفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج إلى أن تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الأمور أيام الرشيد، فاتخذ الكاغد وتداوله الناس بعده إلى اليوم"[٢٤]. ويتفق على هذا الأمر القلقشندي حيث يذكر أن "الورق كثر زمن الرشيد وفشا عمله بين الناس، فأمر ألّا يكتب الناس إلّا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي فسد وإن كشط ظهر كشطه.. وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب

---

(٢٣) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص٧٣-٧٤.

(٢٤) المقريزي، الخطط المقريزية، الجزء الأول، ص١٦٣.

ومن بعد واستمر الناس على ذلك إلى الآن"[٢٥]. كذلك يتفق ابن خلدون مع المقريزي والقلقشندي في أن الورق ظهر وفشا استعماله أيام الرشيد ولكنه يذكر أن الفضل بن يحيى هو الذي أشار بصناعته الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً "لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت"[٢٦].

ويصف القلقشندي أنواع الورق المعروفة في عهده فيقول: "الورق بفتح الراء ويسمى الكاغد.. وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه وقطعه وافر جداً ولا يكتب فيه في الغالب إلّا المصاحف الشريفة وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القافات ونحوها... ودونه في المرتبة الشامي... ودونهما في المرتبة الورق المصري... ودون ذلك ورق المغرب والفرنجة فهو رديء جداً سريع البلى قليل المكث ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء"[٢٧].

وقد اشتهرت سمرقند بصناعة الورق وأصبحت من المدن الكبيرة. المنزلة في هذا المجال لمدة طويلة من الزمن لكن سمرقند بطبيعة الحال لا تكفي حاجة البلاد الإسلامية من الورق ولهذا قامت مصانع الورق في معظم المدن الإسلامية. فقد انتقلت صناعته أولاً إلى بغداد نتيجة للقرب الجغرافي وكذلك بسبب الدور الثقافي والحضاري لبغداد. ومن الطبيعي أن تنتقل صناعة الورق من بغداد إلى بلاد الشام. فقد كانت طرابلس الشام من عيون المدن التي فاقت سواها من البلدان في صناعة الورق. كما تميزت طبريا في فلسطين بكاغدها الجيد منذ المائة الرابعة

---

(٢٥) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الثاني، ص٤٧٥.

(٢٦) ابن خلدون، كتاب العبر، الجزء الأول ص٣٥٢.

(٢٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الثاني، ص٤٧٦-٤٧٧.

للهجرة. أما دمشق فتعتبر من المراكز الحضارية التي اشتهرت بمعامل الورق اشتهاراً بعيداً[٢٨] وتذكر المصادر أن أوروبا كانت تبتاع الورق الدمشقي[٢٩] كما انتقلت صناعة الورق إلى الديار المصرية وقد وصف القلقشدني الورق المصري بأنه في المرتبة الثالثة بعد البغدادي والدمشقي[٣٠]. وقد أسس أو مصنع للورق في مصر سنة ٨٠٠ للميلاد. بعد ذلك انتقلت صناعة الورق إلى قبرص وصقلية والمغرب والأندلس ومنها انتقلت وبعد مئات السنين إلى أوروبا.

لقد استدعى اختراع الورق من قبل الصينيين وانتشار صناعته واستعماله في الديار الإسلامية ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق والكتابة والكتب وهؤلاء هم الوراقون، الذين لعبوا دوراً لا يمكن تجاهله في مجال نشر الثقافة العربية الإسلامية. ذلك أنهم كانوا آنذاك بمثابة دور النشر للكتب في أيامنا هذه، يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وعرضها في الحوانيت الخاصة بهم وبيعها في أسواق الكتب.

وقد بدأ ذكر الوراقين وحوانيتهم منذ عهد الرشيد، أي منذ بدء استعمال الورق في الدواوين والرسائل والكتب لأول مرة. يدل على ذلك القصة التي يوردها ياقوت الحموي في معجمه، حيث يقول: "وحدث أبو مسجل عبدالوهاب قال: كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم وهو يومئذ وراق وجعله في دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع إليه كتب أبي عبيدة وأمره بنسخها، فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا

---

(٢٨) كوركيس عواد، الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية، ص٤١١.

(٢٩) محمد كرد علي بك، الإسلام والحضارة العربية، الجزء الأول، ص١٢٥.

(٣٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الثاني، ص٤٧٦-٤٧٧.

على الوقت الذي نرده إليه، وكان الأثرم يقرأ على أبي عبيدة..."[٣١]. ويمكن اعتبار العصر العباسي العصر الذهبي لحركة الوراقين بسبب كثرة عددهم وانتشار حوانيتهم وأسواقهم.

المعروف أن العصر الأموي كان يمثل بداية الانطلاق للحضارة العربية الإسلامية. فلم تنتشر حركة الوراقين، ولم نسمع عن حوانيت الوراقين كما سمعنا عنها فيما بعد (في العصر العباسي). ولعل أهم سبب وراء ذلك هو ندرة الورق، الذي كان يصنع في مصر من نبات البردي بكميات محدودة، وكان الحصول عليه صعباً وثمنه غالياً. حتى إن عمر عبدالعزيز أصدر أوامر بالاقتصاد في استعماله.[٣٢] وقد شكا أبو نواس، حتى في العصر العباسي، عجزه عن اقتناء الورق عندما قال:

أريد قطعة قرطاس فتعجزني ... وجل صحبي أصحاب القراطيس
لحاهم الله عن ود ومعرفة ... إن المياسير منهم كالمفاليس[٣٣]

وقد اتخذ ملوك بني أمية غلماناً وأجراء للنسخ، فقد روي أن عبيد بن شرية الجرهمي وفد إلى معاوية وقص عليه طرفاً من سير الأولين، فأمر معاوية ناسخيه بنسخها[٣٤]. كما كتب ابن النديم عن مجموعة نادرة لخطوط العلماء في العصر الأموي: "ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج وقد اشتغل أناس

---

(٣١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء ١٥، ص٧٧-٧٨.
(٣٢) ابن عبدالحكم. سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٦٤.
(٣٣) لطف الله قاري: الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي ص١٧.
(٣٤) ابن النديم، الفهرست، ص١٠٢.

بالوراقة مقابل أجر في العصر الأموي هذا، كان منهم خالد بن أبي الهياج ومالك ابن دينار[٣٥].

أما المتطلبات المادية الأساسية لمهنة الوراقة فتتلخص في توافر مادة مناسبة للكتابة وهي الورق غالباً، وتوافر أدوات للكتابة يمكن حصرها في المواد التالية:

أولاً: القلم، وهو معروف عند العرب بدليل قوله سبحانه وتعالى: "نۤ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"[٣٦] وقد عُرف القلم عند الوراقين بأسماء كثيرة منها اليراع والمزبر. وكانت الأقلام في بادئ الأمر تصنع من السعف أو القصب بعد أن يقلم. ومن ذلك كان اشتقاق اسم القلم. ومن لوازم الأقلام عند الوراقين:

- المدية، وهي السكين التي تبري فيها الأقلام. وكان الوراقون ينصحون بعدم استخدامها لغرض آخر سوى البري.
- المقط أو المعصمة، وهي قطعة صلبة من الحجارة أو الرخام يبرى عليها القلم لاستواء البري.
- المقلمة، وهي المكان الذي توضع فيه الأقلام.
- المفرشة، وهي قطعة من خرق الكتان أو الصوف تفرش تحت الأقلام.
- الممسحة، وكانت تتخذ من خرق متراكمة ذات وجهين ملونين من صدف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش، يمسح بها القلم عند الفراغ من الكتابة، حتى لا يجف عليه الحبر فيفسده.

ثانياً: المداد. وقد اشتق اسمه من الفعل يمد، وهو ما تمد به الدواة الوراق. ويسمى الحبر من الفعل يحبر. ويقال يحبر الشيء أي يترك عليه أثره. وكان المداد

---

(٣٥) المصدر نفسه، ص٩.

(٣٦) القرآن الكريم، سورة القلم، الآية رقم ١.

أو الحبر في أول الأمر يستورد، كما كان يصنع في البلاد الإسلامية من العفص[٣٧] والزاج[٣٨] والصمغ أو من السناج (الدخان).

ثالثاً: الدواة أو المحبرة. وكانت تصنع من القرون الأولى للهجرة من الخشب وربما من الفخار. ومع تقدم الزمن، أصبحت تصنع من المعادن كالنحاس والحديد، وأحياناً من الزجاج. وإمعاناً في زيادة تألقها كانت تصنع من الأبنوس المحلى بالذهب. وقد كانت مجالس الوراقين تزخر بالدوى. فقد أحصى بعض المؤرخين الدوى في أحد المجالس بأكثر من خمسمائة دواة[٣٩].

ولم يكن باستطاعة أي إنسان أن يحترف مهنة الوراقة، إذ إن الشرط الأول والرئيس لهذه المهنة هو جودة الخط ووضوحه وصحته. وقد كان من الضروري أن يكون الوراق على حظ من الثقافة والمعرفة ليفهم ما ينسخ ولا يكون نسخه آلياً، وأن يكون حاضر الذهن منتبهاً.[٤٠] ومن أهم صفات الوراق التي يجب أن يتحلى بها الأمانة فيما ينقل وينسخ، إذ يجب عليه أن ينقل الأصل وإلّا فسد المعنى وضاعت الفائدة من المادة المنسوخة. وقد ورد في الفهرست عن أحد الوراقين (الكرماني) بأنه شخص مضطلع بعلم اللغة والنحو، مليح الخط، صحيح النقل، يرغب الناس في خطه[٤١].

---

(٣٧) العفص هو حمل شجر البلوط وهو مادة سوداء.

(٣٨) الزاج هو كبريت الحديد.

(٣٩) شعبان خليفة، المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه المادية، ص١٠٧-١١٧.

(٤٠) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص١٧٥-١٧٦.

(٤١) ابن النديم، الفهرست، ص١١٨.

مشاهير الوراقين:

لقد اشتغل بالوراقة علماء أجلّاء ومؤلفون مرموقون حتى أصبحت مهنة راقية محترمة. ولهذا فقد انتشرت دكاكين الوراقين في طول البلاد الإسلامية وعرضها. فقد كان ابن النديم وراقاً، حيث يقول عنه ياقوت: "كنيته أبو الفرج... مصنف كتاب الفهرست... ولا أستبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب"(٤٢). كذلك كان ياقوت نفسه وراقاً يبيع الكتب وينسخها ويتاجر بها(٤٣). أما ابن الهيثم (العالم الفيزيائي الشهير) فقد اشتغل بالنسخ فترة مهمة من حياته أثناء إقامته في القاهرة عند ذهابه إلى مصر. وكان له خط في غاية الصحة وتذكر المصادر أنه كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله وهي إقليدس، والمتوسطات، والمجسطي(٤٤).

ولقد كانت الوراقة مهنة الفضلاء والصلحاء الذين يريدون أن يكسبوا رزقهم حلالاً وبكد يمينهم. فقد كان الحسن بن عبدالله المرزباني النحوي قاضياً زاهداً لم يأخذ على الحكم أجراً، وإنما كان يأكل مما تكتب يمينه. حيث كان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته، ثم يخرج إلى مجلسه"(٤٥). كذلك يذكر ابن خلكان أن أبا الفتوح أسعد بن أبي الفضائل، ويصفه بأنه من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد مشهور بالعبادة والنسك والقناعة، لا يأكل إلّا من كسب يده وكان يورّق

---

(٤٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٨، ص١٧.

(٤٣) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص٧٧.

(٤٤) القفطي، تاريخ الحكماء، ص١٦٧.

(٤٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٨، ص١٤٦-١٤٧.

ويبيع ما يتقوت به[٤٦]. وعندما يترجم مؤرخو العلم والأدب لبعض الوراقين نراهم يذكرون أخبارهم بكل احترام وإجلال، ومن ذلك ما ذكره ابن النديم عن حارث بن علي الوراق: "من أهل الدين والورع والتقى، رئيس من رؤساء النظر، قليل النظير في زمانه، وله تأليف محكم وكتب جياد مشهورة ونقوض لعدة كتب..." [٤٧].

ويمكن القول إنه كان هناك ثلاثة أنواع من الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية: نوع ينسخ بالأجرة لمن يدفع له حسب كمية المنسوخ ومن هؤلاء مالك ابن دينار. ونوع يعمل عند الأغنياء والحكام والعلماء لكي ينسخ لهم مقابل أجر شهري أو سنوي ومن هؤلاء خالد بن أبي الهيّاج الذي يعتبر من أوائل الوراقين، وكان موصوفاً بحسن الخط. يقول عنه ابن النديم: وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي ﷺ بالذهب من (الشمس وضحاها إلى آخر القرآن) ويقال إن عمر بن عبدالعزيز قال له: أريد أن تكتب لي مصحفاً على هذا المثال. فكتب له مصحفاً تنوق فيه[٤٨]. ونوع ثالث يكون عبداً مملوكاً لا يحصل على مقابل لشغله. وقد كانت هناك طريقتان للنسخ: الطريقة الأولى وفيها ينسخ الوراق من المخطوط مباشرة بنفسه ودون مساعدة أحد، وبعد فراغه من نسخ الكتاب يراجعه غيره للتأكد من صحة ما نسخ وأنه لم يهمل ولم يقفز من على السطور. الطريقة الثانية وفيها يجلس عدد من الوراقين في أماكنهم ويملي عليهم شخص آخر من مخطوط أريد الحصول على عدة نسخ منه، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجرى المقابلة[٤٩].

---

(٤٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الأول ص١٨٨.

(٤٧) ابن النديم، الفهرست ص٢١٨.

(٤٨) عبدالسلام هارون. تحقيق النصوص ونشرها، ص١٩.

(٤٩) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص١٧٥-١٧٦.

ويبدو أنه من الصعب جداً حصر مشاهير الوراقين، ذلك أن كتب التراجم تحوي أسماء جملة من أولئك الوراقين الذين فرضوا أنفسهم على دنيا الثقافة العربية الإسلامية. ولو تحرينا كتب التراجم العربية لخرجنا بأسماء المئات من الوراقين المترجم لهم ولعل من مشاهير الوراقين على سبيل المثال لا الحصر: الإمام الجليل أحمد بن حنبل والقاضي أبو سعيد السيرافي وترجمته في الأعلام، وابن النديم وترجمته في الأعلام أيضاً. ومن مشاهيرهم أيضاً أبو حيان التوحيدي الأديب الفيلسوف وترجمته في الأعلام وأحمد بن عبدالدايم المقدسي، أحد المحدثين الفقهاء الحنبليين وترجمته في الوافي بالوفيات. ومن هؤلاء ابن القوطية العالم اللغوي والمؤرخ الفيلسوف وله ترجمة في الأعلام، والخطاط بن مقلة وترجمته في معجم البلدان، ومنهم أيضاً دلال الكتب سعد بن علي الأديب الشاعر وترجمته في تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، ومنهم الحجاج بن مطر وترجمته في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وأحمد بن طيفور الأديب المؤرخ وترجمته في الأعلام، ومالك ابن دينار وترجمته في الأعلام والفهرست، وعلان الشعوبي وترجمته في معجم الأدباء. ومن العلماء الوراقين أبو موسى الحامض وأبو عبدالله الكرماني. ومنهم يحيى بن عدي المنطقي النصراني وهشام بن يوسف الراوي القاضي وأبو علي الحسن بن شهاب العكبري وياقوت الحموي وغيرهم كثير[٥٠].

لقد كان عدد الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية كبيراً. فقد كان للجاحظ أكثر من ورّاق، منهم زكريا بن يحيى الذي ذكره القالي في الأمالي،[٥١] ومنهم أبو القاسم عبدالوهاب بن عيسى الذي ذكره الخطيب في تاريخ بغداد[٥٢]، والزبيدي في

---

(٥٠) لطف الله فارس. الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص٧٢-٧٧.

(٥١) الأمالي، الجزء الأول ص١٤٨.

(٥٢) تاريخ بغداد، الجزء الخامس، ص٥٦٩.

تـاج العـروس[٥٣] وكـان لأبـي العبـاس محمـد بـن يزيـد المبّـرد ورّاقـون مـنهم ابـن الزجاجي والساسي. أما القاضي أبو المطرف، قاضي الجماعة بقرطبة، فقد كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً. ولم يخل هذا الميدان من عنصر المرأة، إذ نجد من أسـمائهن (ثنـاء) الكاتبـة، ذكرهـا ابـن النـديم ممـن كتبـوا الخطـوط الأصـيلة الموزونة[٥٤].

أعمال الوراقين وواجباتهم:

يمكن القول إن أعمال الوراقين وواجباتهم كانت كثيرة ومتعددة. وقد لخصها ابن خلدون عندما قال: "... فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأمصار.. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين."[٥٥] كما لخص حمادة واجبات الوراق على النحو التالي: ينتخب الورق، وينسخ الكتاب أو ينسخ تحت إشرافه، ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه[٥٦]. أما قاري فيلخصها على النحو التالي: الحصول على الورق بأرخص الأسعار، اختيار أشهر الكتب في أول صدورها، الإجادة في تزويق الكتاب وزخرفته ليروج بعد التصحيح والضبط، ونشر الكتب من مكان لآخر بقصد استجلاب المنفعة[٥٧].

---

(٥٣) تاج العروس، الجزء العاشر، ص١٠٨.

(٥٤) ابن النديم، الفهرست، ص١١.

(٥٥) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٦٧-٣٦٨.

(٥٦) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص٧٧.

(٥٧) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص٥١.

لقد لعب الوراقون دوراً رئيساً في تطوير مقتنيات المكتبة العربية الإسلامية من الكتب من خلال عملية النسخ باعتبارها أهم طرق الحصول على الكتب في تلك الفترة. فقد كان لدى أغلب المكتبات العربية الإسلامية وراقون يتناوبون النسخ. "ففي مكتبة بني عامر في طرابلس الشام كان هناك مائة وثمانون وراقاً يتناوبون العمل فيها ليل نهار. كما ألحق بأغلب المكتبات العربية الإسلامية غرفة أو غرف أعدت لجلوس النساخ وممارسة أعمالهم. كما زُودت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق"[٥٨]. لقد كان الوراقون بمثابة المطابع الحديثة[٥٩]. والفرق بين حوانيت الوراقين ودور الطباعة والنشر هو الفرق بين المخطوط والمطبوع.

ومن ناحية أخرى كان هؤلاء الوراقون هم الذين يصححون الكتب التي ينسخونها. روى الزرقاني محدثاً عن يحيى بن أكثم أن يهودياً دخل على المأمون فجالسه، فأعجب المأمون به، ورغبه في الإسلام فلم يرض. ثم مرت سنة جاء اليهودي بعدها فأسلم. فتعجب المأمون من ذلك، فأخبره اليهودي بأنه خرج من عنده فنسخ نسخة من التوراة حرّف فيها وباعها فقبلت منه، ثم نسخ نسخة من الإنجيل وباعها محرّفة فقبلت منه، ثم نسخ نسخةً من القرآن الكريم، فلما جاء بها إلى الوراقين، بصفتهم تُجار كتب، راجعوا تلك النسخة وردوها إليه بعد اكتشاف التحريف[٦٠]. من هذا يتضح مدى عناية الوراقين بالكتب التي ينسخونها. ولكن يجدر بنا أن نعرف أن ذلك لم يكن قاعدة عامة عند الوراقين جميعاً. فلكل قاعدة شواذ كما يقولون. حيث وجد من بين الوراقين من زيّف الكتب بقصد، ووجد فيهم

---

(٥٨) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص١٧٥.

(٥٩) عبدالسلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص٤.

(٦٠) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، ص٤٨.

من لا يدقق ما نسخه. فقد روي أن وراقاً عند إسحق الموصلي يدعى سندي بن علي، اتفق وشريك له على وضع كتاب نسباه إلى إسحق الموصلي لكي يضمنا له الرواج[٦١].

لقد كان العلماء والأدباء والمؤلفون شديدي الاتصال بالوراقين لا سيما المثقفين منهم. ولهذا نجد أن بعض العلماء من غير الوراقين اعتمدوا كثيراً على الوراقين كمساعدين لهم في بحوثهم. وقد كان للعديد من هؤلاء العلماء وراقون مخصصون ينسخون مؤلفاتهم وينشرونها، وينسخون لهم مؤلفات غيرهم لتضاف إلى مكتباتهم. إن دور الوراقين لم يقف عند النسخ لهؤلاء العلماء بل تعداه إلى مساعدتهم في البحث والتأليف ثم القيام بنشر هذه المؤلفات وهي وظيفة دور النشر حالياً. وتشير المصادر إلى أن حنين بن إسحق كان له وراق والجاحظ كذلك وابن سلام والمبّرد والفراء والواقدي وغيرهم[٦٢]. وقد كان بعض الوراقين يتجاوزون مهنتهم الأصلية إلى صناعة التأليف[٦٣].

كذلك لعب الوراقون دوراً في زخرفة المخطوط العربي وتذهيبه. أما الزخارف فقد كانت تقصد لتحلية المخطوط، وكانت في بداية الأمر مجرد خطوط بسيطة لم تلبث أن تطورت بعد ذلك إلى رسوم هندسية لها أصول وقواعد. وأحياناً كانت تتخذ أشكالاً نباتية. وقد كانت المصاحف مجالاً خصباً لهذه الزخارف، لأن الوراقين تحرجوا من رسم أشكال آدمية أو حيوانية فتوسعوا في استعمال الأشكال الهندسية والنباتية. أما بالنسبة إلى التذهيب فإنه أول ما وجد في المصاحف. فقد كتب

---

(٦١) ياقوت الحموي. معجم الأدباء، الجزء ٦، ص٥٧.

(٦٢) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون، ص٤١-٤٢.

(٦٣) عبدالسلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص٢٣.

الوراقون المصاحف بماء الذهب[٦٤]. حيث وجدت في خزانة العزيز بالله الفاطمي نسخ من القرآن الكريم بخطوط منسوبة (أي معروف كاتبها) زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرها[٦٥]. ولم يلبثوا أن نقلوا التذهيب إلى الكتب الأخرى وأغرقوا في استخدامه. ولم يقتصر عمل بعض الوراقين على تذهيب صفحات المخطوط وإنما تعدى الأمر إلى تذهيب الجلود أحياناً.

وفيما يتعلق بتجليد المخطوط فقد كان القرآن الكريم أول كتاب يجلّد حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، لأنه كان أول كتاب عربي يصنع على شكل كتاب. وبعد أن أخذ شكل المخطوط العربي شكل الكتاب، بعد أن ظل فترة طويلة على شكل لفافة، أخذ ميدان التجليد يتسع ويجذب اهتمام الناس. وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة من المجلدين في مكتبة بيت الحكمة في بغداد. ويقال إن العرب قد أخذوا فن التجليد عن الأحباش، ويقال عن أقباط مصر[٦٦]. وقد سيطر الذوق الجميل على تجليد الكتب. فقد اهتم الوراقون بالجلود كل الاهتمام. وقد اشتهر العراق بتجليده المتقن الجميل، كما اشتهرت مالقة في الأندلس بأنها مركز صناعة الجلود الممتازة ومركز التجليد الفاخر. أما المكتبات العربية فقد كانت تحوي قسماً خاصاً للتجليد في بعض الأحيان وكانت ترسل الكتب لتجليدها بعد الفراغ من نسخها[٦٧].

ويمكن تلخيص سلسلة الأعمال التي يقوم بها الوراقون على النحو التالي:

---

(٦٤) شعبان خليفة، المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه الببليوغرافية، ص١١٢، ١١٣.

(٦٥) المقريزي، الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص٢٥٣.

(٦٦) شعبان خليفة، مصدر سابق. ص١١٢-١١٣.

(٦٧) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص١٨٣.

أولاً: اختيار الورق المناسب من حيث الحجم والنوع واللون وإعداده للنسخ.

ثانياً: اختيار الكتب المناسبة والمشهورة بعد صدورها.

ثالثاً: نسخ الكتب. وهنا إما أن يقوم الوراق بعملية النسخ أو يقوم النساخون بذلك تحت إشرافه.

رابعاً: تصحيح الأخطاء التي قد يرتكبها النساخون وضبط المنسوخ وتدقيقه.

خامساً: زخرفة المخطوط وتحليته وتذهيبه إن لزم الأمر.

سادساً: تجليد الكتب. وهنا إما أن يقوم الورّاق بعملية التجليد أو يقوم المجلدون بذلك تحت إشرافه.

سابعاً: بيع الكتب والمؤلفات وهي عملية التوزيع أو التسويق أو النشر للعلماء والأدباء والعامة وبخاصة أولئك الذين يرتادون دكاكين الوراقين وأسواقهم. وهذا الدور كان له أثر كبير في نشر التراث العربي المخطوط سواء داخل البلاد العربية الإسلامية أو خارجها.

حوانيت الوراقين وأسواقهم:

مع كثرة الورق وانتشار استعماله وازدياد عدد العاملين في مهنة الوراقة فتحت دكاكين الوراقين وحوانيتهم في معظم المدن الإسلامية. لقد وجدت دكاكين الوراقين في الدولة العباسية منذ أوائل أيامها. فقد كان "علّان الشعوبي وراقاً زمن المأمون وكان له دكّان يورق فيه"[٦٨]. ويذكر اليعقوبي[٦٩] أن عدد حوانيت الوراقين في ربض وضاح مولى أمير المؤمنين من ضواحي بغداد بلغ أكثر من مائة حانوت،

---

(٦٨) فيليب حتي، تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى الآن، ص٤١٤.

(٦٩) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص٢٤٥.

وذلك في زمانه وهو أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري). وقد كانت حوانيت الوراقين وأسواقهم أماكن ثقافية يرتادها العلماء والأدباء والفضلاء، يتذاكرون فيها الحوادث ويتناشدون الأشعار ويتجادلون ويتساجلون ويبحثون آخر الأخبار الأدبية. فقد اعتاد أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني التردد على سوق الوراقين في بغداد والجلوس في حانون وراق بعينه(٧٠).

وقد وصفت حوانيت الوراقين بأنها "من أبرز الأماكن التي أرست دعائم الحركة الثقافية وكانت مقصد طلاب العلم والمعرفة، فقد كانت هذه الحوانيت منبعاً غزيراً للثقافة، ومجالاً واسعاً للمناظرات الأدبية والحوار العلمي، يؤمها المثقفون والأدباء، ويتخذونها منتدىً لهم وملتقىً لاجتماعاتهم، ومكاناً لعرض أبحاثهم، وإقامة مناظراتهم، ثم تحولت هذه الحوانيت رويداً رويداً لتصير مقصداً لكل من يبغي علماً أو يهوى أدباً، حتى إنهم ليذكروا أن الجاحظ "كان يبيت فيها للبحث والنظر"(٧١). وقد وصفت أسواق الوراقين بالمعاهد العلمية(٧٢).

ويمكن القول إن لكل حرفة في الحضارة العربية الإسلامية سوقاً معينة. فهناك سوق للبزازين وأخرى للعطارين وسوق للوراقين. ومما قيل في مدح مجالس الوراقين وأسواقهم:

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تحتسب
فلا تقربن غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب

(٧٠) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص٨٠.
(٧١) أحمد جمال العمري، حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، ص١٦.
(٧٢) عبدالسلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ص٢٠.

فهاتيـــك آلـــة أهـــل الـــوغى وهاتيـــك آلـــة أهـــل الأدب[٧٣]

وقد انتشرت أسواق الوراقين في كل مدينة كبرى من مدن العالم الإسلامي. وتذكر لنا المصادر المختلفة أخباراً عن كثير من أسواق الوراقين في تلك المدن. ويبدو أن سوق الوراقين الرئيسة في بغداد زمن ابن النديم (أواخر القرن الرابع للهجرة) كانت في الجانب الشرقي. إذ إنه يقول في أخبار أحمد بن أبي طاهر إنه من أبناء خراسان... تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي[٧٤].

ويبدوا أنه كان في بغداد أكثر من سوق للوراقين. وفي البصرة كان هناك سوق للوراقين. وفي القاهرة بنيت سوق للوراقين حوالي سنة ٧٠٠ للهجرة وكانت مجمعاً للعلماء. وفي "فسطاط مصر كان في زمن عهد الطولونيين والإخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع. وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات"[٧٥]. ويذكر المقريزي[٧٦] سوق الوراقين في القاهرة في أكثر من موضع وفي أكثر من مناسبة. كما يذكر سوق الوراقين القديم التي أصبحت مكاناً لصبغ الجلود. ونجد ذكر أسواق الكتب والوراقين في سوريا[٧٧]، وفي قرطبة كذلك، حيث كان عدد الوراقين من الكثرة بحيث نجد في كتاب علماء الأندلس لابن الفرضي تراجم لأحد عشر وراقاً قرطبياً. ومع الانتشار الواسع لحوانيت الوراقين وأسواقهم أصبحت لها أحياء خاصة بها تعرف باسمها[٧٨].

---

(٧٣) لطف الله قاري، الوراقة والوراقون، ص٢٢.

(٧٤) ابن النديم، الفهرست، ص٢٠٩.

(٧٥) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص٤١.

(٧٦) المقريزي، الخطط المقريزية، الجزء الثاني، ص١٩٥-١٩٧.

(٧٧) أحمد شلبي، مصدر سابق، ص٤١.

(٧٨) شعبان خليفة، مصدر سابق، ص١٠٧-١١٦.

ومن الأدلة على ازدحام الناس في حوانيت الوراقين وأسواقهم أن أحد زبائنها وهو عبدالله بن أحمد بن الخشاب كان إذا حضرها وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع، ليأخذه بثمن بخس[٧٩].

نهاية حركة الوراقين:

يبدو أن مهنة الوراقة كانت من المهن المتعبة. فقد روى ياقوت أن محمد بن أحمد الدقاق المعروف بان الخاضبة المتوفى سنة ٤٨٩ للهجرة كان يورق للناس وينفق على أهله. وقد اضطر لإرهاق نفسه بالعمل المتواصل، إذ إنه نسخ في سنة واحدة صحيح مسلم سبع مرات. يقول ابن الخاضبة عن نفسه: "فلما كان ليلة من الليالي، رأيت في المنام أن القيامة قد قامت ومناد ينادي ابن الخاضبة. فأحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة. فلما دخلت الباب وصرت في الداخل استلقيت على قفاي ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ"[٨٠].

وقد وصف الشاعر أبو محمد عبدالله محمد البكري الأندلسي مهنة الوراقة والنتائج التي تترتب على ممتهنها عندما قال:

أما الوراقة فهي أنكد حرفة ... أوراقها وثمارها الحرمان
شَبّهت صاحبها بصاحب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريان[٨١]

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من العلماء والفضلاء والصلحاء اشتغلوا بمهنة الوراقة، إلا أنه كان ينظر في بعض الأوقات إلى منتحلها بشيء من الازدراء. فهذا

---

(٧٩) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، الجزء ١٢، ص٥١.
(٨٠) معجم الأدباء، الجزء ١١، ص١٨٤، الجزء ١٧، ص٢٢٨.
(٨١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص٢٧٩-٢٨٠.

علّان الشعوبي، وكان صاحب دكان في سوق الوراقين، أُحضر إلى دار أحد رجال الدولة العباسية ليكتب هناك وينسخ. فدخل الدار أحمد بن أبي خالد يوماً، فقام إليه جميع من فيها سوى علّان الشعوبي فإنه لم يقم. فقال أحمد: "وما أسوأ أدب هذا الوراق. فسمعه علّان فقال: كيف أَنسب إلى سوء الأدب ومني تتعلم الآداب وأنا معدنها". وقد حصل شيء من هذا القبيل لأبي حيان التوحيدي. فقد كان ينسخ ذات يوم في دار الصاحب ابن عباد، فرآه الصاحب. يقول أبو علان: فلما أبصرته قمت قائماً. فصاح بحلق مشقوق: اقعد فالوراقون أخسّ من أن يقوموا لنا[٨٢]. وقد وصف أبو حيان التوحيدي، وهو أحد الوراقين المشهورين، حرفة الوراقة بأنها حرفة الشؤم[٨٣]. وكان الوراقون عموماً يشكون من هذه المهنة الشاقة. ومن هؤلاء وراق من نيسابور يدعى أبا حاتم عمل في المهنة لمدة خمسين سنة وهو القائل:

إن الوراقـــة مهنـــة مذمومـــة محرومـــة عيشـــي بهـــا زمـــن
إن عشـت عشـت ولـيس لـي أكـل أو مـــت مـــت ولـــيس لـــي كفـــن[٨٤]

بشكل عام، يمكن القول إن حركة الوراقين في الحضارة العربية الإسلامية قد مرّت بثلاث مراحل رئيسة على النحو التالي: المرحلة الأولى وتشمل العصر الراشدي والأموي، وهي مرحلة الانطلاقة للحركة، وفيها تم تدوين القرآن الكريم وبعض الكتب وبخاصة في الموضوعات الدينية. ولم تنتشر الحركة بشكل واسع خلال هذه الفترة لعدة عوامل أهمها نقص الورق. المرحلة الثانية وهي مرحلة

---

(٨٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١٢، ص١٩١-١٩٢، ج١٥، ص٢٦.
(٨٣) حبيب الزيات، الوراقة والوراقون، ص٢٠.
(٨٤) انظر يتيمة الدهر للثعالبي.

التطور والازدهار وتشمل الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني وبداية القرن السابع للهجرة. وتعتبر هذه المرحلة العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية بوجه عام ولحركة الوراقين بوجه خاص. فقد انتشرت صناعة الورق وازدهرت حركة التأليف والتدوين والترجمة وأسست المدارس والمعاهد وامتلأت الديار الإسلامية بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم. أما المرحلة الثالثة فقد بدأت مع القرن السابع للهجرة، عندما تعرضت الحضارة العربية الإسلامية، نتيجة عوامل داخلية وخارجية متعددة إلى الجمود والتقهقر والدخول في عصور الظلمة. ويمكن القول إن حركة الوراقين قد توقفت وانتهت عندما دخلت الطباعة إلى البلاد العربية والإسلامية.

وهكذا انتهت حركة الوراقين التي لعبت دوراً رئيساً في إنتاج المخطوط العربي، وساهمت في نشره وتسويقه داخل البلاد الإسلامية وخارجها. ولعل أبرز نتائج هذه الحركة ظهور المكتبات وانتشارها بأنواعها المختلفة في الحضارة العربية الإسلامية التي يمكن حصرها في الأنواع التالية: مكتبات المساجد والجوامع، المكتبات الخاصة، مكتبات الخلفاء، المكتبات الأكاديمية، والمكتبات العامة.

قائمة المصادر والمراجع

١- أحمد جمال العمري.

حوانيت الوراقين وقيمتها العلمية، المجلة العربية، السنة الثانية، العدد السادس، ١٩٧٨، ص,١٦

٢- أحمد شلبي.

تاريخ التربية الإسلامية، بيروت، دار الكشاف للنشر، ,١٩٥٤

٣- الحموي ياقوت.

معجم الأدباء، القاهرة، مطبعة الحلبي، ,١٩٣٦

٤- ابن خلدون، عبدالرحمن.

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة، دار الطباعة الخديوية، ١٢٨٤هـ.

٥- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م.

٦- السجستاني، أبو بكر عبدالله بن أبي داوود.

كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جفري، القاهرة، المطبعة الرحمانية، (؟).

٧- شعبان عبدالعزيز خليفة.

المخطوط العربي: دراسة في نشأته وملامحه الببليوغرافية، مجلة الفيصل، العدد ٣٥، ١٩٨٠، ص١٠٧-١١٧.

٨- عبدالسلام هارون.
تحقيق النصوص ونشرها، الطبعة الثانية، القاهرة، مؤسسة الحلبي، ١٩٦٥,

٩- فيليب حتي.
تاريخ العرب من أقدم العصور حتى الآن، الطبعة السادسة، لندن، ماكميلان، ١٩٥٦,

١٠- القرآن الكريم.

١١- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي.
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩١٤-١٩١٩,

١٢- كوركيس عواد.
الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، العدد ٢٣ ص.

١٣- لطف الله قاري.
الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٢,

١٤- محمد طه الحاجري.
الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ١٢، ١٩٦٥,

١٥- محمد فؤاد عبدالباقي.
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧,

١٦- محمد كرد علي.

الإسلام والحضارة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٠.

١٧- محمد ماهر حمادة.
المكتبات في الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨.

١٨- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي.
الخطط المقريزية، الشياح، مكتبة إحياء العلوم.

١٩- ميري عبودي، فتوحي.
فهرسة المخطوط العربي، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٠.

٢٠- ناجي معروف.
الوراق البغدادي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، ١٩٦٩-١٩٧٠.

٢١- ابن النديم، محمد بن إسحق.
الفهرست، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ.

٢٢- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.
كتاب البلدان، تحقيق دي غوية، ليدن، إبريل، ١٨٩٢م.